

الموجات التاريخية للهجرة الروسية إلى مصر

تشكل الشتات الروسي في مصر في أواخر القرن التاسع عشر. وإذا كان في عام ١٨٨١ بحسب بيانات القنصلية العامة الروسية قد عاش في مصر ١٠٨ مواطن روسي^{٢١٠}، فإنه طبقاً لأول تعداد سكاني عام في مصر، وصل تعدادهم في عام ١٨٩٧ إلى ثلاثة آلاف روسي^{٢١١}. كانت الجالية الروسية آنذاك تتكون بشكل أساسي من اليهود^{٢١٢}. وكانت هذه الجالية أحد روافد التيار العام لهجرة اليهود من روسيا، الذي بدأ بعد اغتيال الإمبراطور "ألكسندر الثاني" عام ١٨٨١^{٢١٣}.

كانت مصر قبلة لليهود الروس على الأقل لثلاثة أسباب أولاً: إبحار السفن من أوديسا إلى الإسكندرية بشكل منتظم، بالإضافة إلى انخفاض أسعار التذاكر مما أدى إلى سهولة الوصول إلى مصر. ثانياً: شمل المواطنين الروس منذ عام ١٧٧٤، خاصة بعد هزيمة الإمبراطورية العثمانية في حربها ضد روسيا، ما يسمى "نظام الامتيازات"، الذي بموجبه لن يقعوا تحت طائلة قانون السلطات المحلية، مما أعطى وضعهم طابعاً مميزاً زدهم ناهيك أن إنجلترا، التي احتلت مصر عام ١٨٨٢، كانت الضامن لذلك الأمر.

- ٢١٠ عن مقالة: «Исторические волны российской эмиграции в Египте»، والتي نشرت بمجلة «الأرشيف الشرقي»، إصدار معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم الروسية للمستشرق الروسي Vladimir Belyakov. مصر في عيون الروس منتصف القرن التاسع عشر و بداية القرن العشرين: السياسية، والاقتصاد، الثقافة. مجموعة من الوثائق. التصنيفات والمقدمات والتعليقات، والملاحظات، وترجمات «جينادى جورياتشكين». موسكو، ١٩٩٢، السطر ١٢٥-١٢٦.
- ٢١١ «جينادى جورياتشكين»، «ت. ج. جريتشينكو»، «و. إ. فومين»، الهجرة الروسية في مصر وتونس (١٩٢٠-١٩٣٩)، موسكو، ٢٠٠٠، ص ٦.
- ٢١٢ «فلاديمير بيلياكوف» «على ضفاف النيل المقدس» الروس في مصر. موسكو ٢٠٠٣. ص ١٠٠-١٠٢.
- ٢١٣ «سولجنيتسين» ماننا عاماً معاً. الجزء الأول. موسكو، ٢٠٠١، ص ٢٥٥، ٣٠٩.

ثالثاً : وجود جالية يهودية كبيرة وناجحة في مصر ، والتي من خلالها لن يكون من العسير الاندماج داخل المجتمع المحلي . ووفقاً للتعداد السكاني لعام ١٨٩٧ بلغت أعدادهم ٢٥٢٠٠ شخص^{٢١٤} .

على الرغم من أن الشتات الروسي كان أغلبية من اليهود ، إلا أنهم لم يجلبوا معهم إلى مصر الثقافة اليهودية فقط ، بل جلبوا أيضاً الثقافة الروسية واللغة الروسية . ويشير الباحثون إلى "الهواء الروسي اليهودي الخاص" الذي تنفسه اليهود الذين عاشوا في الجنوب الروسي ، وشعورهم الجارف بالهوية الوطنية ، والولاء الشديد للثقافة الروسية^{٢١٥} .

في عام ١٩٠٧ عندما تم إجراء ثاني تعداد سكاني في مصر لوحظ انخفاض طفيف في أعداد الشتات الروسي الذي بلغ ٢٤٠٠^{٢١٦} على ما يبدو أن بعض المهاجرين قد غادروا البلاد ، فيما استوطن آخرون وحصلوا على الجنسية المصرية .

بعد اندحار الثورة الروسية الأولى ١٩٠٥-١٩٠٧ اتجهت إلى مصر موجة هجرة جديدة قادمة من روسيا . وهنا ظهرت مجموعة من اللاجئين السياسيين ، ورغم قلت عددها إلا أنها كانت نشطة . وقد استقر اللاجئون السياسيون على وجه الخصوص في الإسكندرية ، وقاموا بالدعاية بين أفراد أطقم السفن الروسية ، التي تأتي بانتظام إلى الميناء الرئيس لمصر . وقد أدى القبض على ثلاثة من اللاجئين السياسيين من قبل السلطات المصرية في يناير ١٩٠٧ بناء على طلب من القنصلية الروسية إلى مظاهرة احتجاجية لعدة أيام نظمها ممثلي الجاليات الأجنبية في الإسكندرية والقاهرة^{٢١٧} .

في عام ١٩١٢ ، وصلت إلى الإسكندرية اللجنة الخارجية لنقابة البحارة التجاريين في البحر الأسود برئاسة «ميخائيل آدموفيتش» قادمة من إسطنبول ، وقام أعضاؤها أيضاً بنشر الدعاية الثورية بين أفراد السفن الروسية ، كما أصدروا صحيفة «البحار» الشهرية . وأدى القبض على «آدموفيتش» في مايو ١٩١٣ إلى مظاهرات عارمة اجتاحت القاهرة والإسكندرية ، مثل تلك التي حدثت في يناير ١٩٠٧^{٢١٨} .

- ٢١٤ سيد أحمد ، نزيل عبد الحميد «اليهود في مصر» . القاهرة ، ١٩٩١ ، ص ١٨ (باللغة العربية) .
 ٢١٥ «ليفين» . «عقالية الشتات» . موسكو ، ٢٠٠١ ، ص ١١٧ .
 ٢١٦ «جينادى جورياتشك» ، «جريتسينكو» ، «ديميتري فومين» . المرجع السابق ص ٦ .
 ٢١٧ «فلاديمير بيلياكوف» . نفس المرجع ، ص ١١٠-١١٣ .
 ٢١٨ نفس المرجع ص ١١٨-١٢٤ .

ولم تؤد الثورة في روسيا عام ١٩١٧ إلى عودة الثوار الروس إلى أرض الوطن، فقد وجدوا في مصر ملاذاً لهم، وفي عام ١٩١٩ كانت لاتزال لجنة المهاجرين السياسيين الروس، في الإسكندرية^{٢١٩}. تؤدي عملها.

سجل تعداد السكان لعام ١٩١٧ داخل مصر ٤٢٢٥ شخص من مواطني الإمبراطورية الروسية^{٢٢٠}. وكانت زيادة أعداد الشتات الروسي؛ بسبب هجرة اليهود مجدداً، لكن هذه المرة من فلسطين. بعد اشتراك الإمبراطورية العثمانية في الحرب العالمية الأولى في ٢٩ أكتوبر ١٩١٤، تدفقت أعداد كبيرة من اليهود الذين يحملون جواز السفر الروسي نازحين من الأراضي المقدسة، متجهين إلى الإسكندرية. وفي يناير ١٩١٥ قدرت أعدادهم بحوالى ٣٢٧٦ شخصاً^{٢٢١} وقد وفرت لهم السلطات المصرية مساكن مؤقتة ومؤمن. وعندما سنحت الفرصة أرسلوهم إلى الوطن عبر أوروبا أو من خلال الشرق الأدنى. ولكن على ما يبدو أن بعضهم قرر البقاء على الأراضي المصرية.

في ربيع ١٩٢٠م وصل إلى الإسكندرية ما يقرب من ٤٣٥٠ لاجئاً روسياً^{٢٢٢}، قادمون من «نوفوروسيسك»، وكان أغلبهم من الجنود الجرحى والمرضى التابعين لجيش المتطوعين وموظفي المستشفى. وكانت هذه هي الموجة الرابعة، للهجرة الروسية إلى مصر. وفي صيف ذلك العام، أرسل جزء من اللاجئين بعد تلقيهم العلاج إلى القرم، أما الجزء المتبقى منهم فقد تم وضعهم داخل معسكرات خاصة، على مدار عامين تحت رعاية السلطات الإنجليزية. وقد هجر اللاجئون الذين كانت تخصصاتهم مطلوبة في مصر، خاصة في المجال الطبى والفنى المعسكر تدريجياً واندمجوا في الحياة المحلية، أما البقية الباقية فقد تم إجلاهم في صيف ١٩٢٢ إلى «بلغاريا» و«صربيا».

كان المهاجرون الجدد بمثابة الهيكل للشتات الروسي، الذي تواجد في مصر بصورة مستقرة حتى منتصف عام ١٩٥٠، ثم بدأ في التقلص شيئاً فشيئاً لأسباب منطقية. وطبقاً لبيانات التعداد السكاني الدورى في مصر قدرت أعدادهم في عام ١٩٢٧ بنحو ٢٤١٠ شخصاً، وفي عام ١٩٣٧ قدرت بنحو ١١٧٦، أما في عام ١٩٤٧ كانت أعدادهم تقدر

٢١٩	أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية ملف ٣١٧. القنصلية في مصر. حافظة ١/٨٢٠، وثيقة ٥٠٨، السطر ٦.
٢٢٠	محمد محمود سليمان (الأجانب في مصر). ١٩٢٢-١٩٥٢. القاهرة، ١٩٩٦، ص ٦٠ (باللغة العربية).
٢٢١	أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية ملف ٣١٧، حافظة ١/٨٢٠، وثيقة ٦٥٧، السطر ١٢٤-١٢٨.
٢٢٢	نفس المرجع حافظة ٣/٨٢٠، وثيقة ٢١٠، السطر ٦-١٢٨.

بـ ١١٧٤^{٣٣} وفقاً لحساباتي التي ارتكزت بالأساس ، على وصف الجبانة الأرثوذكسية الروسية في مصر ، فإن الشتات الروسي بعد اندلاع الثورة المصرية عام ١٩٥٢ ، سرعان ما تقلص إلى أكثر من النصف^{٣٤} . وكان سبب ذلك يرجع إلى الخوف من إضطهادات جديدة وسياسة النظام الجمهوري التي تهدف إلى طرد الأجانب من مصر . ووفقاً للقانون الجديد يجب أن تكون نسبة العمالة داخل المؤسسات المصرية ٧٥٪ موظفين ، و ٩٠٪ عمال ممن يحملون الجنسية المصرية^{٣٥} وأدى ذلك القانون إلى إنتشار البطالة بين الأجانب وتعرض كبار السن بالمقام الأول ، الذين يمثلون الأغلبية المطلقة للجالية الروسية للإقالة .



دار مسنين قام المهاجرون الروس ببنائها عام ١٩٥٠ في حي هيليبوليس ، وتحمل اسم القديس نيكولاى

- ٢٢٣ محمد محمود سليمان . المرجع السابق ، ص ٦١ ، ٦٣ ، ٦٥ .
- ٢٢٤ «فلاديمير بيلياكوف» . المرجع السابق ، ص ١٩٣-١٩٤ ؛ نفس المرجع ، الجبانة الروسية في مصر . موسكو ٢٠٠١ ، ص ١٠-٣٧ .
- ٢٢٥ الشرقي «ماركوف» . الروس في مصر // «روسكايا ميل» ، باريس ، عدد ٦٣٧ ، ٣ . ٣ . ١٩٥٤ .

بحلول الثمانينيات من القرن العشرين، لم يعد هناك وجود للمهاجرين البيض الروس في مصر. وفي عام ١٩٨١، تم بيع إحدى الشقق بوسط القاهرة خصصت منذ عقود للنادي الروسي الذي كان يضم مطعماً ومكتبة. وفيما يخص كنيسة القديس «نيكولاي» صغيرة الحجم التابعة لبيت المسنين، فقد تم نقلها إلى البطريركية اليونانية بالإسكندرية^{٣٦}.

تركت الجالية الروسية في مصر أثراً كبيراً، وغير محدود مقارنة بأعدادها. وكان أغلبها من المتخصصين، الحاصلين على تأهيل عال، ومن بينهم الأطباء وعلماء المصريات، ورجال الثقافة والفن. وما زال المصريون من الجيل القديم، يتذكرون بكل امتنان هؤلاء الناس. وقد أسهم الروس بقسط كبير في تنوير المصريين وتحديث الدولة.

بنهاية الستينيات وبداية السبعينيات، وبشكل مواز لبقايا جالية الهجرة البيضاء، ظهرت جالية جديدة من السيدات السوفياتيات، اللاتي تزوجن من مصريين أثناء فترة دراستهم في الاتحاد السوفيتي. لكن في حقيقة الأمر، لا يمكن أن نطلق عليهن لقب «مهاجرات»، فقد كن يحتفظن بجواز السفر السوفيتي، كما كان بإمكانهن العودة إلى الوطن وقتما أردن ذلك. أعداد «المواطنات السوفياتيات»، كما كان يطلق عليهن آنذاك لم تكن كبيرة، حيث قطعت مصر علاقاتها السابقة والوثيقة مع الاتحاد السوفيتي في نهاية عام ١٩٧٠. وفي عام ١٩٩١ وفقاً لبيانات سفارة الاتحاد السوفيتي يعيش على ضفاف النيل حوالي ٢٥٠ سيدة سوفيتية، واللاتي تزوجن من مصريين، وكانت ٥٤٪ منهن حاصلات على تعليم عال^{٣٧}. وهن يعشن في مصر إلى الآن، وتم تغيير جوازات السفر الخاصة بهن، إلى جواز السفر الروسي (أو الأوكراني، أو غيره)، وتحمل أغلب سيداتنا، اللاتي ينتمين لهذا الجيل جواز السفر المصري أيضاً.

الشتات الروسي الحالي في مصر، يحمل الطابع الأنثوي. ولا ينبغي أن نطلق عليهم كلمة مهاجرين ذلك؛ لأن هذا الشتات تشكل نتيجة للسياحة الهائلة القادمة من روسيا إلى مصر. وفي عام ٢٠٠٩ تزايدت أعداد السائحين الروس في البلاد لتصل إلى ٢ مليون شخصاً. والعدد الدقيق لمواطني روسيا الذين يقيمون في مصر بصفة دائمة، لا يمكن

٢٢٦ «فلاديمير بيلياكوف». مصر الروسية. موسكو، ٢٠٠٨، ص ١٣٤.

٢٢٧ «فلاديمير بيلياكوف» «ماروسيا»، زوجة الشيخ، أو «مواطنات بحقوق مجزئة»، ٢٨. ١٩٩١. ٩.

معرفته ، حيث أنهم الآن غير مطالبين بتسجيل أنفسهم في القنصليات ، وكما علمت من مصادر رسمية في السفارة الروسية في فبراير ٢٠١٠ ، تم تقديرهم بـ ٢٠-٢٥ ألف شخص ، ويمثل ثلاثة أرباعهم نساء متزوجات من مصريين . وهن يقمن بشكل أساسي في المدن السياحية ، وباقي ممثلى الجالية الروسية يتمثل في العاملين بالقطاع السياحي داخل الشركات السياحية ، ورجال الأعمال و الذين يخدمون السائحين ، و الشتات الروسي ، الذي يقيم بشكل أساسي داخل المدن السياحية . وينزع الشتات الروسي إلى النمو السريع فنرى أنه مع بداية عام ٢٠٠٧ ، بلغت أعداد من يحملون جواز السفر الروسي في مصر يتراوح ما بين ١٢ إلى ١٢ ألف شخص ^{٣٨} .

الشتات الروسي المعاصر الذي تولد من الكم الهائل من السياحة ، ساهم في نشر اللغة الروسية والثقافة الروسية في ربوع مصر ، كما ساهم بقدر كبير في تقوية النموذج الإيجابي للروس الذي تكون تاريخيا لدى المصريين ، ويدعم أواصر التعاون بين الشعبين .



المغنى الروسي "فيوادر إيفانوفيتش شاليابين"، الصورة التقطت عام ١٩٢٣ ، من أرشيف الهجرة الروسية

٢٢٨ «فلاديمير بيلياكوف» . السياحة والتبادل الثقافي الدولي//آسيا وأفريقيا اليوم ، ٢٠٠٧ ، عدد ٩ ، ص١٤٨ .